«حب وسرقة ومشاكل أخرى» فيلم عن الوجع الفلسطيني يعرض في تونس

تونس – يُعرض الجمعة، الفيلم الفلسطيني "حب وسرقة ومشاكل أخرى" للمخرج مؤيد العليان في المكتبة السينمائية التونسية (السينماتاك) بمدينة الثقافة في العاصمة تونس.

ويسرد العمل بالأبيض والأسود قصة شاب فلسطيني يقع في ورطة حياته عندما يسرق السيارة الخاطئة. السيارة التي اعتقد أنها إسرائيلية، وأنها وسيلة سهلة للحصول على المال من أجل السفر إلى الخارج بطريقة غير شرعية. تتحوّل هذه السرقة إلى كارثة حين يكتشف أن حقيبة السيارة التي سرقها تحتوي بداخلها على جندي إسرائيلي مخطوف.

وتنطلق أحداث الفيلم مع "موسى" الشاب الذي لا يحمل الكثير من صفات البطولة التقليدية ليكون هنا المواطن الفاشل و"غير الوطني" بالمعنى التقليدي للكلمة ونقيض الصورة النمطية (الإيجابية) عن الفلسطيني كما يطيب للسينما أن تقدّمه، إنه شخص يريد أن يعيش هو وعائلته وحبه الذي خسره حتى ولو من خلال بيع قطع السيارات الإسرائيلية المسروقة ليجمع ثمن هجرته إلى إيطاليا.

الفيلم يسرد بالأبيض والأسود قصة شاب فلسطيني مغامر يقع في ورطة حياته عندما يسرق السيارة الخاطئة

هنا الاحتلال القابع في الخلفية يحضر ببساطة شديدة وبقوة تمتلك القدرة على قلب خطط الشاب الساخط على كل شيء، حين يكتشف أن السيارة التي سرقها من مكان عمله في فلسطين المحتلة، حيث يبني ووالده بيوت المستوطنين، كان بداخلها جندي إسرائيلي أسرته الكتائب الفلسطينية.

من هناك ينقلب كيان الشاب وهو أمر لا يقتصر عليه بل على عشيقته التي تخون زوجا لم تحبّه، ووالده الذي يُصادر تصريحه، فيصبح موسى مطاردا من المقاومة ومن إسرائيل، لتنقلب عليه السيارة المسروقة من كونها وسيلة لتحقيق حلمه إلى نقيض ذلك.

الأحلام الفردية لموسى التي تتعارض فجأة مع أهداف المقاومة الفلسطينية تدفعه إلى إخفاء الجندي (الذي يعمل في الإذاعة الخاصة بالجيش الإسرائيلي) بدلا من تسليمه، وفي رحلة هربهما يجتمعان على طاولة لأم فلسطينية عجوز اعتقل الاحتلال ولدها الوحيد وأفقدها السكري بصرها، وفي قمة الوجع تطعم العجوز الجندي من دون أن تراه وهي تحلم بأن تسمع خبرا عن عودة ابنها الشاب بصفقة الجندي الأسير الهارب مع موسى.

ذروة درامية موفقة تمكّن من خلالها المخرج من أن يجمع فيها المصائر التي تخنق موسى وتقتله، وهو الهارب من كل الأعباء الوطنية والسياسية واللائذ بحلمه الخاص المتعثّر.

أصبح موسى ملاحقا من الجانبين (الاحتلال والكتائب)، وبذكاء وظّف المخرج المشاهد بحسّ كوميدي عالي المستوى، فهو في الحالتين من الممكن أن يفقد حياته، كخائن أمام كتائب المقاومة، وكمتعاون بالنسبة إلى المحتل، وفي الوقت ذاته يريد أن يؤمّن المبلغ الكبير لمدير النادي الرياضي الذي سيسهّل عملية هجرته غير الشرعية، وهنا ينتقد العليان فساد السلطة بطريقة جيدة، فوجد الحل أخيرا، في مساومة موسى للكتائب بتسليمهم الجندي الأسير مقابل مبلغ مالي، فيقبلون الصفقة على مضض.

ومن ثمة نرى موسى في مشهد يجمعه مع لجنة الاتحاد الأوروبي المخوّلة إعطاءه تصريح دخول لأوروبا، فيسألونه عن موقفه من المرأة، وهل يمانع في زيارة متحف أوشفتيز لضحايا النازية من اليهود، فيومئ برأسه بالقبول مع أنه لم يفهم شيئا، ويحصل على التأشيرة.

إلى هنا تبدو أن كل مشكلات موسى انتهت، لكن القصة تعود وتحيط بالإنسان الفلسطيني إذا ما قرّر أن يحلم، فلا يجد أمامه طريقة لتحقيق هذا الحلم سوى السرقة والمساومة، وفي الوقت نفسه يرفض أن يكون عميلا للاحتلال وإخبارهم بمكان الكتائب وتسليم الجندي لهم.

عندما صارت التأشيرة في جيب موسى، وحلمه اقترب من أن يتحقّق، ذهب إلى الحب مرة أخرى، ليتّفق مع حبيبته على كل شيء، لكنه لم يعلم أن انتقام الاحتلال كان حاضرا، فقد تمّ تصوير علاقتهما بشكل كامل، وبدأ المحقّق من جانب الاحتلال في ابتزازه، حتى يدلّه على مكان الكتائب الفلسطينية، وفي لحظة ضعف يشعرنا التطوّر الدرامي للأحداث أن موسى استسلم، لكنه وفي اللحظة التي يمكن فيها للاحتلال معرفة المكان من خلال الكاميرا التي يحملها موسى، يقرّر الشاب الفلسطيني قطع الإرسال.

وفي اللحظة ذاتها تصل صور موسى مع عشيقته إلى الزوج، وتقترب النهاية، بعد اكتشاف الزوج الخيانة، ويقرّر قتل زوجته لكنها تقتله، ويتحمّل موسى المسؤولية كاملة فيدخل السجن.

في النهاية يضع المخرج المشاهد إزاء بداية جديدة للفيلم، حيث حبيبته وطفلتها (هي في الحقيقة ابنة موسى غير الشرعية) في زيارة خاصة لموسى المحكوم بالمؤبد يتبادلان الضحكات والأحلام.

نهاية مُربكة وغير متوافقة مع أحداث الفيلم، وفيها نوع من الضياع، لكن الخلاصة تؤكّد أن موسى لم يساوم على أمرين الوطن والحب، فمن أجلهما ضحّى بحياته، ما يعني أن الفلسطيني يمكن أن يكون أيّ شيء، لكنه من الصعب أن يرضى بأن يكون عميلا حتى لو كان لصا.

هكذا يعرض فيلم "حب وسرقة ومشاكل أخرى" تفاصيل الواقع الفلسطيني الرثّ والمتهالك الذي يحمل مجموعة من الإدانات حيث المسؤول الرياضي الفاسد، والأجانب الذين يدمّرون البلد ويهجّرون شبابها بسياساتهم الخاصة، والاستخبارات التي تتربّص بالإنسان الفلسطيني، والأب صاحب الحظ العاثر، وأم الأسير التي خسرت نظرها قبل رؤيتها لابنها المسجون.

فيلم "حب وسرقة ومشاكل أخرى" هو العمل الروائي الطويل الأول للمخرج مؤيد العليان الذي شارك أيضا في التأليف والإنتاج بالتعاون مع شقيقه رامي العليان، وقام ببطولة الفيلم كل من سامي متواسي ومايا أبوالحياط ورمزي مقدسي ورياض سليمان وكامل الباشا وحسين نخلة.

لص سيارات تتحوّل حياته إلى كارثة

مرآة تعيد صور من ينظرون فيها مشوهة

مسرح آكل للحوم البشر عسير الهضم ووقح

خوسيه مورينو أريناس يحوّل خشبته إلى مرآة مقعرة

يمتاز المسرح الإسباني بقوة نصوصه وتمثلاته المكثفة التي تشبه عوالم شعرية، عوالم مقتضبة وواضحة المعالم ساخرة وماكرة ما لا تقوله أكثر مما تقوله. ولا يشذ الكاتب المسرحي الإسباني خوسيه مورينو أريناس عن هذا التصور بل يذهب فيه بعيدا إلى درجة تحويل العادي إلى مسرح، قد يضحك ولكنه يخفي مرارة لاذعة.

محمد الحمامصي
كاتب مصري

ينفتح مسرح الكاتب الإسباني خوسيه مورينو أريناس على القضايا المجتمعية التي تشكل هما إنسانيا عاما، ويعالجها انطلاقا من رؤية ومعالجة فنيتين شديدتي الخصوصية، تجعلان من شخوصه على تماس مباشر مع الجمهور من ثمة تحريضه على المشاركة الفكرية والوجدانية.

أعمال أريناس "المرآب"، أو "الجراج"، و"الشاطئ" و"رحلة سفاري" التي ترجمت إلى عدة لغات وعرضت على مسارح العديد من الدول الأوربية، وضمها الكتاب الصادر أخيرا بعنوان "مسرح الهجرة" عن دار العين بالقاهرة بترجمة وتقديم خالد سالم وتوطئة الكاتب المسرحي الإسباني خيرونيمو لوبيث موثر، تعد نموذجا كاشفا لتشكيلات العالم المسرحي لأريناس الذي يؤكد أنه "مهما بدت بعض المشاهد في مسرحي أنها غير واقعية أو غير مستقرة فإن المشاهد سيكون لديه دائما إحساس بأنها قريبة منه وأنه قد عاشها في لحظة ما".

المسرح الوقح

في توطئته يقول خيرونيمو لوبيث موثر "ربما فكر أريناس في المحيطين به عندما كتب هذه المسرحيات، من هنا نجد أن القضايا التي عالجها ترتبط بمن تعنيهم، الموجهة إليهم. وهذا لا يعني أنه في قرارة نفسه لا يطمح أن تصل أعماله إلى أقصى أرجاء العالم. ولحسن الحظ من أجل تحقيق ذلك لم يتخل عن الكتابة عما هو قريب منه ويعرفه معرفة جيدة، الكتابة عن قضايا شاردة وهي ظاهريا ذات أهمية عامة. ومعروف أن الوصول إلى العالمية يأتي مما هو محلي. الأمثلة كثيرة ويكفي أن نشير إلى دون كيخوتي الذي وضع حبكة مؤلفه ثيربانتيس في منطقة إسبانية اسمها لاماتشا، واليوم أصبح بطلها إرثا للإنسانية".

ويلفت إلى نوع الأشخاص الذين يسكنون مسرح أريناس قائلا "إنه يجندهم من الشارع، من المتاجر، من الكافتيريات، من المكاتب، من مواقف السيارات، من المزارع، من الشواطئ ومن كل فضاء مخصص لقضاء وقت الفراغ. شكل التعبير أو السياق الاجتماعي والثقافي الذي يتحركون فيه سياق إسباني بحت، إلى درجة أن الكثير من القراء أو المشاهدين يتعرفون من خلال الشخوص المسرحية على أناس معروفين يعيشون في محيطهم وليس لديّ أدنى شك في أن أكثر من واحد في قرارة نفسه يجد صورته في هذه الشخوص. وجون ب.غابريلي، دارس مسرح مؤلفنا، أشار إلى أن الحبكات والتراكيب العاطفية والاجتماعية والسياسية والعائلية التي يطرحها هي نفسها التي تنتج خارجه".

ويؤكد خيرونيمو أنه عندما تمثل أعمال أريناس في إسبانيا فإن خشبة المسرح تتحول إلى مرآة تنعكس فيها صورة الجمهور. وهنا يستبق الأحداث ليوضح أنها ليست مرآة مسطحة كتلك التي لدينا في بيوتنا، بل هي مقعرة تعيد صور من ينظرون فيها مشوهة. هكذا كانت الموجودة في واجهة محل حدائد في مدريد، كانت موضوع استلهام لكاتب مسرحي إسباني آخر هو بابي إنكلان فأبدع ما أطلق عليه اسم "الإسبرينتو". لم يخترع هو هذه الكلمة إذ كانت تطلق على الأشخاص الغرباء والأشياء أو المواقف الغريبة أو الشاذة، بل أخذها من القواميس كي يقدم لأغراض أدبية صورة مشوهة للواقع، مثيرة للسخرية، شاذة، وفي بعض الأحيان مثيرة للشفقة. وهو ما يشبه ما يفعله أريناس في أعماله وإن استخدم ألفاظا أخرى لتعريفها جماليا، مثل المسرح الآكل لحوم البشر أو عسير الهضم أو الوقح.

ويشير خيرونيمو إلى أن أحداث مسرحية "رحلة سفاري" لأريناس تجري في مكان في قلب أفريقيا، بين زوجين واحد من الجنس الأبيض والآخر من السكان الأصليين. وعلى العكس من ذلك فإن الخط الجامع لمسرحيتي "الجراج" و"الشاطئ" ليس سوى المهاجرين، وهو أمر يعني إسبانيا كونها تتلقى المهاجرين والعديد من الدول الأفريقية كونها مصدر هؤلاء المهاجرين.

ومن الملفت للنظر أن لا بطلَ من كلا المسرحيتين هكذا.

تركز اهتمام أريناس على تصرف الإسبان أمام حضور الآخر، حيث يشير في هذه الحالة إلى الغريب بلا موارد الذي جاء دون استدعائه. جليّ أننا لسنا كلنا مثل الغرباء الذين يصورهم، لكنهم موجودون، وليسوا متعوّدين على ألا يُلاحظوا، وهي أسباب أكثر من كافية لوضعهم على رأس المشهد. والمسرح هكذا يفي بوظيفته، وهي الكشف عن مواقف غير نموذجية، وأي جنس درامي يصلح لهذه المهام.

وما يتعلق بالمسرحيات الثلاث نجد أن أريناس لم يبتعد عما هو معتاد فيه وهو روح الدعابة والسخرية، وسخريته ليست خاصة بالمسرحيات المستحبة بل هي معروفة بأنها سوداء نتيجة تشويه الواقع للحصول على مواقف درامية أو مهمة تثير الضحك. إنه ضحك مر لأننا بمجرد رسمه نريد أن نمحوه، فمما يثيرنا كجمهور التعبيرات العنصرية المبالغ فيها والجارحة وحالات التعصب التي يبديها الأبطال.

أعمال مقتضبة

يرى المترجم خالد سالم في دراسته حول مسرح أريناس، والتي جاءت كمقدمة تحت عنوان "مسرح أريناس بين السخرية والميتاتياترو"، أن رسائل المسرحيات الثلاث تولج في هذا العالم، فتضع خطا مرئيا تحت مشكلات المجتمع المعاصر مع مسحة من السخرية والانغماس في تقنية المسرح داخل المسرح. أريناس يحملك لأول وهلة إلى عالم غرناطة الأندلسية بقسمات وجهه المتمازجة، تجمع بين الشرق والغرب، ليبدو وكأنه خرج من مجلس الحكم في قصر الحمراء، فهو من بلدة البلوط من أعمال غرناطة في إقليم الأندلس، جنوبي إسبانيا وقد بدت عليه آثار العز والثراء".

ويضيف أن الفترة الانتقالية في السياسة الإسبانية بعد وفاة الجنرال فرانكو في نوفمبر 1975 تركت بصماتها على أريناس وعلى مجايليه إذ كان في ريعان شبابه، وهي الفترة التي كانت لبنة وفاتحة الديمقراطية التي تعيشها إسبانيا اليوم بعد أربعة عقود من الحرب الأهلية والدكتاتورية في ظل نظام الطاغية فرانكو.

ويتسم الكاتب بغزارة إنتاجه المسرحي، وتتواصل نصوصه بطروحات المسرح السريالي والعبثي أو اللامعقول على طريقة المسرحي الإسباني رامون بايي إنكلان مع نقد عميق لعبثية الترف الإنساني، ويتواصل من خلال هذا المنحى مع الجديد على خطى إيونيسكو ومغيل ميورا وفرناند أرْبال وفرنثيسكو مارتينيث باييستيروس، كما يلاحظ دارس نصوصه أنها تنم عن حالة من الدهشة كوسيلة لكسر الفكر الأوحد الذي يهدد حياة الإنسان ويحاضرها.

ويقول سالم إن أريناس يشير إلى أن "مسرحه مرآة تعكس ظلال أشخاص يحاولون البقاء على قيد الحياة في مجتمع يحيط به هو شخصيا ويشارك فيه، وسط أقوال مطروقة وقوالب اجتماعية مؤطرة سلفا".

ويدرك المتلقي أن شخوص أريناس تتحرك في عالم غير حقيقي، متشظ وغير مستقر، إلا أنه يدرك في الوقت نفسه وجود واقعية كامنة في أعماله، ما يحيل إلى نوع من التناقض. غير أنه في المقابلة نفسها ينفي انتماء شخوصه إلى عالم سريالي متشظ وغير مستقر، فهذا انطباع وليس واقعا حقيقيا لها، ويصعب على الإنسان تصديق ما يحدث في العالم، في المجتمع الذي بنيناه بين الجميع، فقد خلقنا تعايشا قائما على البشاعة والسريالية والقبح، وهو ما يطلق عليه أريناس "عبثية الواقع". وهو مفهوم كامن في مسرحياته، إذ تشرب من عبثية التصرفات الإنسانية، ولهذا فإنه يرى أن من الطبيعي أن يلاحظ المتلقي واقعية كامنة على هذه الأسس مهما بدا بعضها غير واقعي أو خياليا و"مهما بدت بعض المشاهد في مسرحي أنها غير واقعية، فإن المشاهد سيكون لديه دائما إحساس بأنها قريبة منه، وأنه قد عايشها في لحظة ما".

مسرح أريناس يكشف عن مواقف غير نموذجية بينما يحافظ على ما هو معتاد فيه من روح الدعابة والسخرية

ويخلص إلى أن مسرحيات أريناس القصيرة موضوعاتها وحبكاتها تميل إلى أقصى حد من الاقتضاب، إلا أن تعقدها وبعدها واسعان إلى أبعد الحدود. والحبكة وحيدة وقصيرة في حين أن المضمون موجز ويسير في اتجاه واحد خطي، وتتجلى الفكرة في جوهرها مجردة، بلا إضافات فائضة.

يستغني أريناس عما هو حشو وتكميلي، عن كل ما من شأنه أن ينحرف بالانتباه، وفي هذا السياق يظهر إيقاع العمل المسرحي سريعا، وتجري الأحداث وتدور في عجلة دون استمرارية، وهنا يصبح زمن الحبكة قصيرا.